التعليم : التربية الاسلامية والمجتمع الحديث

الدكتور سيد علي اشرف
استاذ اللغة الانجليزية والسكرتارية
لجنة المتابعة للمؤتمر العالمي الاول للتعليم
الاسلامي، جامعة الملك عبد العزيز - جدة

يتضمن عنوان «التربية الاسلامية والمجتمع الحديث» سؤالا و يتطلب اجابة. انه يثير سؤالا حول العلاقة بين المفاهيم الاسلامية للتربية والمجتمع الحديث، سواء كان اسلامياً أو غير ذلك ويجبرنا أيضاً على استكشاف ما اذا كانت المفاهيم التربوية يجب أن تكيف وتعدل طبقاً للتغيرات الاجتماعية التي يجلبها مايعرف «بالعصرية»، أو ما اذا كانت المفاهيم التربوية يجب أن تكون معيارية مبنية على الاساسيات المعطاة في القرآن الكريم والسنة.

وبما أن التربية نشاط ذو هدف يوجه الى النمو الكامل للأفراد فإن المفهوم الاسلامي للتربية لا يمكن أن يقدر حق قدره دون أن نفهم اولا مايعنيه الاسلام بالنمو الكامل للأفراد، لأننا حين نقارن هذا المفهوم للانسان ونموه بالمفاهيم التي شاعت في المجتمع الحديث نستطيع أن نفهم طبيعة المشاكل التي تواجهنا وطريقة اجابة الاسئلة المبينة أعلاه. و يعتبر الانسان في الاسلام ممثلا لله على الأرض وتعتبر الخليقة بأكملها خاضعة له وطبقاً لما جاء في القرآن الكريم فانه بعد خلق الانسان الاول ــ آدم ــ عليه السلام، علمه الله الاسماء كلها. إنه طبقاً للقرآن الكريم فان الله هو البداية والنهاية، وهو الوحيد الذي كان وحده في البداية وسيبقى وحده في النهاية. ارادته هي مصدر الخلق وكل عنصر في

الكون يظهر قوته. ولهذا فان كل شيء في الكون يظهر بعض صفات أو خواص الله. وتعليم آدم ــ عليه السلام ــ اسماء الاشياء يعني جعله على دراية بجوهر الخليقه وبمعنى آخر صفات الله والعلاقة بين الله ومخلوقاته. وليس هذا مجرد ادراك عقلي منفصل عن الفهم الروحي. ان الفهم الروحي هو الذي يتحكم في الفكر يرشده و يقو يه،خلق في آدم ــ عليه السلام ــ احساسا بالمهابة والخوف من الله وجعله قادراً على استخدام هذه المعرفة لفائدة البشرية. ولكى يحاول ابناء آدم أن يصبحوا ممثلين لله على الارض و يكون لهم السيادة على الكون بأسره تحت سلطة الله، منح الله هذه المعرفة للجنس البشرى عن طريق مختارية من الناس المعروفين بالانبياء. وتمد هذه المعرفة الانسان بمعايير عالمية موضوعية مشتقة من صفات الله ويمكن تطبيقها في ظروف متغيرة. وعلم الله الانبياء مبادىء وطرق تطبيق هذه المعايير.وقد اعطيت هذه المبادىء والطرق الى النبي محمد ــ صلاة الله وسلامه عليه ــ في صيغتها الكاملة النهائية عن طريق رسائل أوحى بها اليه وحفظت في القرآن الكريم، وعن طريق شخصية واقوال وافعال النبي نفسه عليه السلام. وهي تمد الانسان بمنهج كامل للحياة. وطبقاً للاسلام اذا اتبع انسان هذه الطريقة بأمانة واخلاص فانه ينمو كشخص متوازن ــ و باذن الله ــ قد يستطيع أن يصل الى هدفه و يصبح خليفة لله أو ممثلا له على الارض بحق.

و بسبب مبدأ التطور هذا عرّف العلماء المسلمون الذين اجتمعوا في المؤتمر العالمي الاول للتربية الاسلامية اهداف التعليم كما يلى:

يجب أن تهدف التربية الى النمو المتوازن لشخصية الانسان الكاملة عن طريق تدريب روحه وعقله وتفكيره ومشاعره وحواسه الجسمية. ولهذا يجب أن تؤدي التربية الى نمو الانسان في كل هذه المظاهر الروحية والعقلية والخيالية والجسمية والعلمية واللغو ية فرديا وجماعيا وحث كل المظاهر تجاه الخير والوصول الى الكمال. و يقع الهدف النهائي للتعليم الاسلامي في تحقيق الخضوع الكامل لله على مستوى الفرد والمجتمع والبشرية على اوسع نطاق.

الى أى مدى يعتبر هذا التعريف مقبولا لمجتمع حديث؟ إن ذلك يتوقف على ما نعنيه بالمجتمع الحديث، كيف يتخيل هذا المجتمع الانسان ومصيره وكيف يريد شخصيته أن تتطور بناء على هذا. و يعتمد قبولنا على اعتبارات عملية وتاريخية وعلى المبررات التي تمدها الغيبيات الاسلامية.

وتنبثق من الجملة المختصرة المذكورة اعلاه الافكار الرئيسية التالية:

أولا: ان المفهوم الاسلامي للانسان له اتساع ومدى لا يوجدان في أى مفهوم آخر. وبما أن الانسان يستطيع أن يصبح «خليفة الله» وأن يرعى أو يحقق في داخله صفات الله، وحيث أن هذه الصفات لها بعد لا نهائي فان امكانيات تقدم الانسان عقلياً وروحياً وخلقياً لا حدود لها.

ثانيا: بما أن المعرفة هي مصدر هذا التقدم والتطور فان الاسلام لا يضع حاجزاً لاكتساب المعرفة.

ثالثا: مدى هذا الاكتساب لابد أن يكون شاملا لأنه باكتساب بعض الخبرة الفعلية فقط لا يستطيع الشخص أن ينمو نموا متوازنا. وهذا يتضمن أن التربية لابد أن تخطط بطريقة يكون لها نمط انضباطي متوازن فيما بينها.

رابعاً: ان المظاهر الجسمية والعاطفية والخيالية والفكرية والخلقية والروحية لشخصية الانسان يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تكوين العلاقة بين هذه الانظمة. ويجب ان يؤخذ في الاعتبار ايضا نمو عقل الطفل وقدراته لكي تقدم الموضوعات والمناهج على مراحل مرتبة حتى يبقى الارتباط فيما بينها.

خامساً: ان تطور الشخصية يتم من خلال علاقة الانسان بالله، والانسان بالطبيعة، ولذا يخطط ترتيب الانظمة والموضوعات بالرجوع الى الانسان كفرد، والانسان ككائن اجتماعي، والانسان ككائن يجب عليه أن يعيش في توافق مع الطبيعة. ففرديته ووجوده ككل ووجوده ككائن طبيعي يستمدها جميعاً من علاقته بالله. وعلى هذا يجب اقامة معرفة مسلسلة تسلسلا هرميا فليست جميع فروع المعرفة في منزلة متساوية فالمعرفة الروحية لها الاولوية القصوى وبما أن الاخلاق تبنى على هذه المعرفة وبما أنها تحكم سلوك الانسان الفردي وسلوكه الكلي وبما أنه حتى التقدم المادي يعتمد على قيم عالمية اساسية، فان معرفة القيم الاخلاقية تلي في الأهمية المعرفة الفكرية التي تؤدى الى تنظيم للمعرفة التي تتحكم في التخيل البشرى وتنظمه والمعرفة التي تساعد على التحكم في الحواس البشرية تلي ذلك. وعلى هذا يجب أن يغرس الايمان والاخلاق في الطفل من المراحل الاولى بالرغم من أن الادراك الروحي الفعلي يأتى اخيرا. ولانه بدون تدريب مناسب للعقل فان الطفل لايستطيع أن يحصل على التمييز

المطلوب لتقدير الحقائق الروحية. وهكذا يركز في مرحلة الطفولة على التحكم في الحواس الجسمية والتخيل. و يساعد التنظيم الفكرى الطفل على أن يتقدم من الاشياء الحسية الى **الاشياء** المجردة أى من الانطباعات المبنية على الحس الى التخيل ومن العلاقة الحقيقية الى الرمز. وحينما تبدأ هذه القرارات في النموجيدا و بطريقة مناسبة في الطفل فانه يبدأ في تقدير العلاقة بين الانظمة و يبدأ في تحقيق ماهو مكيف عاطفياً في الطفولة للايمان به ــ أي وجود الارادة الالهية في الطبيعة والانسان ــ وكيف أن الخليقة كلها «آيات الله» أو «علامات من الله» مظهر للقوة الالهية ورمز للحقيقة.

من الصعب في المجتمع الحديث تخطيط التعليم على اساس من الغيبيات فقط لأن الناس بدأوا يشكوكون و يتحدون بل انهم يحللون افتراضات المجتمع القديمة قدم الدهر. ومن المعروف أنه يوجد المجتمع ككيان موحد طالما أن افراده يوافقون بلا تساؤل على هذه الافتراضات، و يعتبرونها مصدراً لنظام حياتهم ونظاما للمعتقدات والاخلاق. وهذا النظام لا يبدو كمجموعة من المبادىء لانهم قد اعتادوا عليها. وكما يقول ت . ى. هيولم «أنها تبدو لهم طبقات لايمكن تجنبها من العقل البشرى». ولا يعتبرها الناس مجرد آراء صحيحة لانها قد أصبحت بدرجة كبيرة جزءاً من العقل لدرجة انهم لا يعونها ابدا. انهم لا يرونها ولكن يرون اشياء اخرى من خلالها.

ولكن هذا الموقف لايستطيع ان يدوم تجاه زحف الموقف العلمي وسيطرته. و يلاحظ ان هذا الموقف العلمي الذي هاجم كل المفاهيم عن الله والانسان والطبيعة وخلق كابوساً من الارتباك، يختلف كلية عن المنهج العلمي للاغريق القدماء ومفكرى المسلمين الاوائل. فان مسلك الاغريق والمسلمين الى المعرفة ــ بما في ذلك كل العلوم ــ مبني على الوجود. فالعلم طبقا لارسطو معرفة ليس فقط بالحقيقة ولكن بالحقيقة المستنتجة منطقياً، وهدفها ليس فقط مجرد تسجيل الارتباطات الملحوظة في الطبيعة وحسابها بعبارات رياضية ولكن ايضا ــ واساسا ــ تفسير المظاهر الملحوظة والقاء الضوء على علاقاتها بمسبباتها، وتصل الغيبيات الى هذه الغاية حينما يفسر الكون عن طريق الله، والرياضيات حينما تعرف خواص المثلث، والفلسفة الطبيعية حينما تشرح التغير خلال اسباب نهائية فعالة، و يهدف العلم الحديث ليس الى المعرفة الوجودية بل الى المعرفة المبنية على الملاحظة والاختبار. والسلوك العلمي الحديث نتيجة ملاحظة محكمة وتحليل لعمليات الطبيعة الخارجية لعدة قرون، موضح في القرن والنصف الأخيرين الى خواص طبيعة الانسان الداخلية. انه ينكر

صحة طريقة العلوم الوجودية و يعترف بالملاحظة المحكمة والتجريب والتعميم. ومن ثم فان العالم يعتمد على حقيقة ملحوظة لبحثه المادى وعلى عقله فقط لاستنتاجاته. فهو يتشكك في أي نوع من التحقق العاطفي أو الموضوعي. وهذا هو السبب في أن نظريات فرو يد السيكولوجية نتائج تنظيم عقلي للسلوك البشري الملحوظ.

و بسبب هذه الطريقة لا يستطيع العالم أن يلاحظ من خلال علم المنهج حقيقة فوق انسانية تستطيع أن تحدث في الزمان والمكان وتظهر ارادتها في هذا الكون، بالرغم من أنه يعترف بحقيقة مفادها أن نتائج الابحاث العلمية غير كاملة وأن الموقف العلمي وعلم المنهج لايستطيعان مساعدة الانسان في تقبل الوحي كمصدر اساسي للمعرفة عن الله والانسان والطبيعة وعلاقاتها ببعض.

و بالمثل فان عمومية دوام طبيعة الانسان «ككائن بشرى» لا تقبل من وجهة النظر العلمية بسبب عدم استجابتها لتطبيق نظرية التطور في كل مجالات الحياة. ولكن المظهر الروحي لطبيعة الانسان يرفض أن يعتبر الانسان ظاهرة اجتماعية بيلوجية فمن الناحية البيلوجية يعامل كحيوان وتجمع البيانات التي يمكن التنبؤ بها وتصنف فيما يختص بتطور هذه العينة وسلوكها. ومن الناحية الاجتماعية يعامل كوحدة يمكن قياسها، تتغير باستمرار مع تغير الظروف الخارجية التي تحكم المجتمع. وتعتبر جميع القيم نسبية وليست مطلقة لأنها نواتج المجتمع ولهذا لايمكن علاجها من وجهة نظر المصلح. فللمصلح نقطة مراجعة ــ مقياس عالمي موضوعي ــ ولا يعتقد عالم الاجتماع في أي من هذه المقاييس. و يستثنى الله ــ سبحانه وتعالى ــ من هذا الاعتبار ولهذا فان ثبات صفاته تعتبر نظريات فوق الطبيعة كونها الانسان في فترة ما من التاريخ البشرى. و يعرّف عالم الاجتماع الحديث هذا التغير في المجتمع بالتشبع بالنزعة الدنيو ية والتي يعتقد أنها أكبر ماساهم به العلم الحديث فيما يختص بالتاريخ البشرى. و يعرّف العلماء التشبع بالنزعة الدنيو ية وهي التي تحرر الانسان اولا من التحكم الديني وثانيا من تحكم الغيبيات على عقله ولغته. وهكذا جلب التشبع بالنزعة الدنيو ية «التحرر من سحر الطبيعة»، «عدم تقديس السياسة» «عدم تكريس القيم»، كما أن الطبيعة منفصلة عن ارادة الله فان الانسان «متحرر» من المتطلبات التقييدية للقوانين الدينية وأنه الآن حر في أن يعمل و يعدل جميع القوانين بما يتمشى مع الظروف المتغيرة للمجتمع. و بفصل القيم عن مصدرها الديني ــ أي الله وصفاته ــ فان عملية التشبع بالنزعة الدنيو ية قد حطمت فكرة نبل وجلال الانسان، ومفهوم أنه خليفة

الله، والمعيار العالمي الموضوعي الذي يمكن بواسطته الحكم على الانسان. والشخص الدنيوي العصري الحقيقي هو ذلك الشخص الذي لايميز بين ماهو عالمي وماهو مطلق، بين ماهو كلي وماهو نسبي، بين المعرفة الملهمة التي يعتبرها المسلم هبة مباشرة من الله والمعرفة المكتسبة التي نجح الذكاء والتخيل البشرى في تجميعها. و بالنسبة لهذا الشخص الدنيوى فان المعرفة التي جمعت في الماضى ــ كما أظهر ذلك الاستاذ جون فايزى ــ في «التعليم في العالم الحديث» مهما كانت مرتبة ومصنفة فانه ينقصها ملاءمتها للمجتمع الحديث. وهذا النقص في الملاءمة هو ما يحاول الشخص الدنيوي العصري أن يبرر به وجهة نظره.

كذلك فان فلاسفة الانسانية الدنيو يين الذين يؤمنون بالصلة الوثيقة بين المعرفة المتجمعة وتعليم الاطفال ينكرون ضرورة مفهوم «المعرفة الملهمة» ليس لأن هذا المفهوم خاطىء ولكن لأنهم لا يؤمنون بالله والالهام الذي تعطيه هذه المعرفة. و يرى الاستاذ «بيترز» وهو فيلسوف دنيوي انساني مشهور «أن الحياة ليس لها هدف واحد، لقد خلق لها الانسان اهدافاً متعددة» وان الهدف من التعليم كما يقول هو رعاية «نوعية المعيشة» وأن العالم الروحي أو عالم مابعد الموت ليس له أى صلة بهذه العملية. و يرى أن التفكير الانساني، هو تهذيب الانسان وتهذيب نفسه وتفتحها على الانسانية الكاملة. وهو تنمية القيم والمحافظة عليها ونقلها كما يبررها المجتمع و يقبلها الناس «الاحرار». و يعنى بالناس الاحرار اولئك الذين شجعوا اتجاها علمياً للعقل فخلصوا انفسهم من سيطرة العقيدة وتقديس الحقائق المطلقة والارشاد بالايمان، و يعتمد الفيلسوف الانساني على العقل فقط، بينما يرفض الشخص الدنيوي العصري كل ماهو وراء الطبيعة وأى نوع من الايدلوجيات، و يبرر العالم الانساني الايدلوجية بأنها بعض القيم الثابتة في محيط التغير الاجتماعي. و يؤكد هذا النوع من الانسانية الدور المكمل للعلم والقيم الانسانية و يرسم نظاما للقيم الانسانية يشبه النظام الديني. ولكن مصدر هذا النظام فكرى وليس روحي. و بسبب نقص هذا المصدر الدائم و بسبب عدم وجود مفهوم «الذات» الضروري الدائم فلا يوجد مبدأ يمكن اعتباره مصدرا نهائيا. وتبين نتائج الابحاث الاجتماعية لاكثر الاقطار الصناعية تقدما مثل انجلترا وامريكا مرضا عاما، فالناس مرتبكون ومتحيرون وقد اكتشف ان هذا الارتباك أدى الى جنوح الأحداث، ونشأ عنه تراجع أخلاق الشباب، فقررت انجلترا ادخال الدين في المدارس الثانو ية كمادة اجبارية. ولم يؤد هذا الى حل المشكلة كما لم يستطع المجتمع الانجليزي العودة مرة أخرى الى مراسي العقيدة الاصلية. والواقع ان تدريس الدين كمادة

من مواد عديدة بضع ساعات فقط وليس كمادة مركزية تحكم طريقة فهم جميع فروع المعرفة البشرية **لا يستطيع** أن يؤكد الاساس الاخلاقي الذي يحتاجه المجتمع. ونحن اذا اتخذنا المجتمع الانجليزي كمثال للمجتمع الحديث وجب علينا ان نتساءل كيف يمكن أن تقام المثل الدينية طالما ان المجتمع يسن قوانين تعارض القوانين الدينية؟ بل كيف يمكن استمرار كمال ونبل الحياة الاسرية الذي يفرضه الدين عندما تصبح الاباحية مبدأ مقبولا؟ كيف يمكن للناس اعتبار القصة القرآنية لخلق آدم حقيقة بينما تدرس نظرية التطور على أنها الحقيقة النهائية لظهور العينات البشرية؟ كيف يمكن أن يوجد اقتصاد متحرر من الفائدة بينما البناء الاقتصادي كله قائم على اساسها؟

ولهذا فمن المستحيل ايجاد حل وسط بين الاسلام والعصرية. واذا كنا نقصد بالعصرية عدم المبالاة بالدين والاعتماد على الطريقة العلمية الحديثة في المعرفة، والطريقة الحديثة في المعيشة اذن فليس من الممكن التكيف مع مايقوله القرآن الكريم. والواقع ان المسلمين لا يمكن أن يكونوا متحضرين بالمعنى المذكور سابقا الا اذا خضعوا للعصرية ومن غير المستطاع وجود حل وسط بين «الكفر» و «الايمان» أو «الدنيوية» و «الاسلام». فلا يستطيع المسلم أن يؤمن بالنتائج الاساسية للعقيدة والحضارة الاسلامية ونتائج الحضارة الغربية الحديثة في نفس الوقت. لايستطيع أن يؤمن بكون يوجهه الله، فيه مظاهر الطبيعة علامات أو «آيات» لله وفي نفس الوقت يلاحظها على أنها لاشيء أكثر من حقائق عمياء يجب أن يعاملها كاشياء يواجهها و يستطيع أن يضمها الى مكاسبه الوقتية. هل يستطيع أن يقبل آدم كأول رجل خلقه الله و يؤمن في نفس الوقت بتطور العينات وفيها ارادة الله أو ارادة الانسان لا عمل لها؟ كيف يستطيع أن يؤمن بمصير الانسان «كخليفة لله» بينما جميع النظريات العلمية والفسيولوجية تعلمه كثيرا من الآراء المتعارضة عن «نفسه»؟ واذا قبل القيم على أنها مبنية على ظروف متغيرة تميز بطريقة زائفة «التغير الاجتماعي» و يعتبر جميع المقاييس بأنها محدودة بالزمان والمكان وليست مشتقة من اساسيات جوهرية، كيف يستطيع أن يقبل القانون السماوى كما جاء في القرآن الكريم والسنة كمقاييس ثابتة. يستطيع الانسان أن يحكم على اعماله الاخلاقية بطريقة موضوعية بناء عليها؟

ولكي نمنع المجتمع الاسلامي باسره من أن تهزم مفاهيمه بهذا الغزو من الأفكار والمثل الدنيوية ينبغى التنبه إلى أن المتمسكون بالتقاليد حافظوا على نظام التعليم الاسلامي التقليدي بينما تبنت السلطات النظام الحديث للتعليم مع تعديلات طفيفة هنا وهناك.

ولا يمكن أن يدمج النظامان لأنه حتى الآن لم يتمكن علماء المسلمين من تكوين مفاهيم اسلامية لكل فروع المعرفة الحديثة كبدائل للمفاهيم الدنيوية التي تحكم كل موضوعات علم الطبيعة والاجتماع. حتى طريقة فهم الأدب والفنون الجميلة يفسرها مفهوم المتعة الجمالية الذي يشتق من مقياس اخلاقي روحي عالمي. والعلماء المسلمون الذين تقابلوا في المؤتمرين العالميين للتعليم الاسلامي اللذين عقدا في مكة واسلام اباد على دراية تامة بهذه المشكلة. فهم يعرفون أن النظامين يخلقان مجموعات متضاربة بدأت فعلا الحرب فيما بينها. ولذلك فانه اذا لم توضع المفاهيم الاسلامية وتؤلف الكتب الدراسية على أساس هذه المفاهيم وتصمم طريقة تدريس تغرس في عقول التلاميذ، طريقة التدريس الاسلامية لجميع فروع المعرفة فان النظام التقليدي لن يكون قادراً على مقاومة الغزو طويلا. ان البحث العلمي واصلاح التعليم الرسمي فقط لا يستطيعان انقاذ المجتمع من هذا الانقضاض.

فبرامج الاذاعة والتلفزيون المنقولة عن اللغات الاجنبية، ودور المسرح والسينما المتأثرة بمحتوى ووسائل وطرق الغرب اللاديني والعقلية الدنيوية للبيروقراطيين الحاكمين، كل هذه تحتاج الى توجيه آخر. وبمعنى آخر، حتى لو نفذ العلماء بحثهم واستطاعوا تكوين مفاهيم اسلامية لكي تواجه تحدي المفاهيم الدنيوية، فان التعليم الرسمي بمفرده لا يستطيع حل المشكلة الا اذا اتخذت خطوات لتغيير عقلية الناس التي تأثرت كثيراً في المجتمع الحديث بالسلوك العلمي والبيئة المستحدثة الآلية.

ولهذا فمشكلتنا أكثر تعقيداً من مشكلة التخلص من المفاهيم الدنيوية التي نشأت من الطريقة العلمية واحلال مفاهيم اسلامية تشتق من القرآن الكريم والسنة محلها. ونلاحظ ان تحديثا على نطاق واسع يجرى الآن في جميع الاقطار الاسلامية في الوقت الذي بدأ فيه التصنيع وادخال الآلة بكيفية يتعذر تجنبها، وحتى الاقطار التي لا تستطيع أن تصبح صناعية ترغم على اعطاء الافضلية لمتطلبات العالم الحديث ومن ثم فانها ترحب بالتكنولوجيا ولكن هل يستطيع التعليم أن يحافظ على المعتقدات و ينقلها خلال هذه المفاهيم الاسلامية التي اخذت التكنولوجيا فيها بخلق عقلية تكنولوجية ؟ يمكن الاجابة على هذا السؤال فقط بعد أن نأخذ في الاعتبار ما يعنيه تحديث البيئة وما هي خصائص هذه العقلية التكنولوجية والى أي مدى يمكن التحكم فيها بالقوى الدينية ؟

والحقيقة الاكثر وضوحا وفي نفس الوقت الاقوى أثرا في حياة انسان القرن العشرين

هي تحضر الاشياء الطبيعية المحيطة به. وانها حقيقة معروفة أن التطور الحضارى قد ظفر بالاسبقية في خطط التطور في جميع الدول الاسلامية وحتى اولئك الذين يريدون أن يعيشوا في القرى يشعرون بتأثير التحضر السريع للريف. و يوْجد في كل الاقطار النامية نزوح هائل من القرى نحو المدن لم يسبق له مثيل. وقد نقل النمو السريع في صناعة السيارات وغيرها من الآليات والطرق المشيدة حديثا وتسهيلات النقل المحسنة وفرص ومغريات المسارح والسينما والفرص التي تقدمها الصحف والراديو والتلفزيون كل هذه المناطق الريفية ليضعها تحت سيطرة مايسميه «لويس ممفورد» باهتمامات المدينة. وما يقوله ممفورد عن طريقة المعيشة الامريكية يحدث الآن في الاقطار الاسلامية والمثل الاعلى الكامل لهذا النظام المدني هو أن الشخص لايعيش حقا الا اذا عاش في المدينة أو مايجاورها.. يغرس هذا المثل الاعلى في النفوس و يؤكد بالاعلان و ينشر بكل وسائل الدعاية «بان الحياة تعنى حياة المدينة». والحياة في المدن موحدة ومنفصلة تماماً عن التربة «الوجود المنظور للحياة والنمو والغناء»، وفي المدن الكبرى مثل طوكيو ولندن ونيو يورك ينمو ملايين الناس في بيئة المدينة ولا يعرفون بيئة أخرى غير شوارع المدينة، اناس سحر الحياة لهم لا تمثله معجزات الميلاد والنمو، بل وضع قطعة من النقود في فتحة آلة وسحب قطعة من الحلوى. وقد نمى هذا البعد عن الطبيعة والطريقة الآلية في المعيشة نظرة آلية ونقصا في الشعور بالطبيعة بين سكان المدينة.

واكتشف «فرويد»، بين سكان المدينة نوعاً من «الرغبة في الموت». و يعتبر ممفورد «حياة المدينة الامريكية مثل الجحيم لا يخففه أى فرض أو قيمة الا مايمكن أن تحدثه تلك الاثارات المؤقتة والمعارض الجماعية. ومع أن التمدن لم يصل الى هذا الحد بعد في جميع الاقطار الاسلامية فان هناك دلائل بالفعل على أن مدنا مثل القاهرة واستنبول وانقرة وكراتشى ودكا وجدة أصبحت مدنا ضخمة وقد استوردت بالفعل كل تسهيلات الغرب واكتسبت كل شرورها وتتقدم المدنية فيها بسرعة كبيرة لدرجة أن الوقت لم يعد بعيدا حتى يصبح المجتمع كله آلى التفكير و يعاني من نفس المشاكل التي يعاني منها المجتمع الغربي. وتستورد صور وافكار وطرق المعيشية ومغريات المدن الغربية عن طريق المذياع والتلفزيون والسينما. وقد بلغ من اعتماد المجتمع على الافكار غير الاسلامية وغير الدينية وطرق المعيشة الغريبة أن الناس اخذوا يناقشون الى أي مدى يجب أن تعدل الشريعة لتحتوى نظاماً جديداً للمعيشة والتفكير. فكثير من ممارسات الشريعة تطاع كعادات، وليس كقواعد ايمانية.

كل هذا يحدث لأن التكنولوجيا في هذه الحضارة المدنية قد بدأت التحكم في حياة الانسان اذ يجب أن تنظم خطط التنمية ومتع الحياة وجميع التسهيلات المدنية وتحكم مركزيا و يباشرها خبراء فنيون كما ان للتقدم التكنولوجي نتائج لايمكن التنبؤ بها فالتغيرات التي يحدثها اسرع من أن تمكن الرجل العادي من أن يطبق النتائج على أى هدف يتصوره مقدما. وهذا هو السبب في أن نخبة الفنيين والمهندسين الاجتماعيين ينفذ صبرهم من بطء العمليات الديموقراطية فهم يريدون تنظيم المجتمع والتحكم فيه بواسطة الكمبيوتر وغيره من الاختراعات المماثلة لانهم يعتقدون أن هذه الاختراعات سوف تكون موضوعية وتعطي نتائج سريعة. وهذا هو السبب في أنهم يعتقدون بل ويخلقون في الانسان العادي اعتقادا في الكفاءة الكلية للعقل الفني. وهكذا تصبح القوة الحقيقية مركزة في ايدي نخبة فنية مسيطرة. وعندما تتعاون هذه النخبة مع السلطة السياسية تكون النتيجة ماكتبه «جورج اورو يل» أو «الدوس هكسلي» العالم الجديد الشجاع موضحا انه حتى عندما توجد الديمقراطية فان الاختراعات الفنية تستعمل لخلق احتياجات جديدة ولا ثارة العواطف البشرية وتنظيم السلوك الانساني. وتلعب الاعلانات الآلية مع الراديو والتلفزيون دوراً هاماً في غسل عقول الاطفال وفي اثارة ردود فعل سياسية واجتماعية بل وعقلية للكبار وفي تنظيم ردود فعل الانسان تجاه الاحداث والمواقف الاجتماعية والسياسية. وتصبح الحياة سلسلة من التفاعلات الميكانيكية المحدودة و يبدو أن عقلا كبيرا يعمل و ينظم الحياة بطريقة غير ملحوظة تقريبا و بدرجة كبيرة حتى أن الفرد لايشعر بأنه يستطيع أن يعمل الكثير وهكذا تتعرض المسئولية الفردية في المجتمع الفني الحديث للخطر. وفي كل الاقطار الاسلامية تقريبا تتركز المعرفة الفنية في ايدي اناس تدربوا في الغرب وغسلت عقولهم بالتعليم الغربي وطريقة المعيشة الغربية. ويخلق العقل الاعلى الذي يتحكم في القوى المركزية بمهارة وعلى نطاق واسع بيئة اجتماعية ثقافية معادية لحرية الاختيار والتحرر من عبودية الخضوع لغرور الفرد أو الجماعة والعبودية لاجزاء الآلة بما يقلل الثقة في القدرة الوحيدة للعقل الذي يؤمن بالله كقوة عليا الى درجة ان النخبة الفنية اخذت لا تعتبر هذا الايمان ضروريا، وقد ولدت هذه الفكرة الزائفة نوعاً من الغطرسة في الانسان بأنه سيد الخليقة كلها مع أن هذه السيادة تستمد من الله الذي يستطيع أن يحرمه من هذه القوة في أي وقت يشاء.

وقد خلقت هذه الغطرسة بالفعل عدم توازن خطير في علاقة الانسان بالانسان وفي علاقة الانسان بالطبيعة، فعلاقة الانسان بالانسان تحكمها فلسفة المنفعة، وليس فلسفة

الصدق أو الزيف. وكما شرح «براتراند راسل» بطريقة مناسبة و بنجاح هذا المفهوم الخطير وتطبيقاته في امريكا وروسيا. وهويقول في الفقرة التالية مأخوذة من كتابه «اثر العلم على المجتمع»: إن هذه الفلسفة التي تحلل مفهوم «الصدق» وتستبدل به «المنفعة» تشتق الهامها من العلم بعدة طرق مختلفة وقد اشار «ديوى» الى أن النظريات العلمية تتغير من وقت لاخر وأن مايشفع للنظرية أنها تعمل ولكن عندما تكتشف ظواهر جديدة مخالفة لها فانه يستغنى عنها. وهي اداة مثل غيرها تمكننا من معالجة المادة الخام. ومثل أى اداة أخرى فانه يحكم عليها بالجودة أو الرداءة بكفاءتها في هذه المعالجة. ومثل أى آلة اخرى فانها تكون جيدة في وقت ورديئة في وقت آخر. وحينما تكون جيدة تسمى «الحقيقة» ولكن هذه الكلمة يجب ألا يسمح معها بالمفاهيم العادية. و يفضل «ديوى» تعبير «التأكيد المضمون» عن كلمة «الحقيقة».

والمصدر الثاني للنظرية هو الطريقة. ماذا نريد أن نعرف عن الكهرباء؟ كيفية انتاجها فقط هو مايهمنا. ولكن اذا اردنا معرفة ما هو أكثر فاننا نقحم نفسنا في الغيبيات. و ينبغي الاعجاب بالعلم عندما يعطينا قوة فوق الطبيعة تأتى من الطريقة. ولهذا فان التفسير الذي ينزل العلم الى ان يكون طريقة فانه يحتفظ بالجزء النافع فقط. واذا كانت الطريقة هي كل مايهمنا فمن المحتمل أن نجد هذه المناقشة مقنعة جداً.

والجاذبية الثالثة للمذهب العلمي التي لايمكن فصلها كلية عن الطريق وهي محبة السلطة. فرغبات معظم الرجال انواع مختلفة: فهناك المتع الحسية، والمتع الجمالية، متع التأمل، والميول الخاصة وهناك السلطة. وقد تكتسب أى من هذه الرغبات سيطرة على الاخرى في الفرد. فاذا سيطر حب السلطة فانك تصل الى وجهة نظر «ماركس» بأن المهم ليس فهم العالم ولكن تغييره. وتزيد الآلات من القوة البشرية بدرجة هائلة. ولهذا فان هذا المفهوم للعلم هو الذي يجذب محبي السلطة. واذا كانت القوة هي كل ماتريده من العلم فان النظرية العلمية تعطيك ماتريد بالضبط دون اضافات خارجية قد تبدو لك غير ذات صلة وتعطيك حتى اكثر مما كنت تتوقع لانك اذا تحكمت في تنظيم المجتمع فكأنما اعطيت قوة مثل قوة الله في صنع «الحقيقة».

وتتميز «فلسفة المهندس» هذه كما يمكن تسميتها عن الادراك وعن معظم الفلسفات الاخرى برفضها «الحقيقة» كمفهوم اساسي في تعريف «الصدق» فاذا قلت على

سبيل المثال «القطب الجنوبي بارد»، فانك تقول شيئاً يعتبر «صحيحاً» طبقاً للآراء التقليدية بفضل حقيقة تقرر أن «القطب الجنوبي بارد». وهذه حقيقة ليس لأن الناس يؤمنون بها أو لأنه يجدر الاعتقاد بها، بل لانها مجرد حقيقة. وعندما لا تكون الحقائق عن البشر واعمالهم فانها تمثل قصور القوة البشرية. فنحن نجد أنفسنا في كون من نوع معين ونكتشف كل شيء في الكون بالملاحظة وليس بالتأكيد الذاتي. حقا أننا نستطيع أن نحدث تغييرات على سطح الارض أو في قربه ولكن ليس في أي مكان آخر. فالاشخاص العمليون لايرغبون في عمل تغييرات في أي مكان آخر ولذا يستطيعون أن يقبلوا فلسفة تنظر الى سطح الأرض كما لو كان كل الكون. ولكن حتى على سطح الارض فان قوتنا محدودة ولايجوز أن ننسى أنه يحيط بنا حقائق معظمها مستقل عن رغباتنا ولو نسينا ذلك فاننا نكون قد اصبنا بجنون العظمة، الذي نشأ بسبب انتصار الطريقة العلمية.

هذه الفلسفة تجرد بالذات المجتمع التكنولوجي من الصفات الانسانية و يكون التأكيد على انتاج السلع بالجملة ووسائل الاتصال الجماهيرية، والخضوع لنظام موحد، والتوحيد القياسي والتكيف مع الآخرين و يصبح الاشخاص اجزاء في آلة جيدة التشحيم. وحينما يكون هناك تأكيد كبير على الطريقة التكنولوجية كما هي الحال في خلق عادة مشاهدة الاطفال لبرامج التلفزيون معظم الوقت في امريكا فان ذلك يتسبب في ضياع حياة الطفل العاطفية والخيالية ولايعود ينمو كشخص متوازن، كذلك فان الاستجابة وتيسير التبادلية وهي جوهر العلاقات بين الافراد تصبح متبلدة وفي الحالات الشديدة تموت تماماً بهذه الطريقة الفنية التي تشجع الانفصال الموضوعي، ومن شأن ذلك التضحية بالمسئولية الفردية على مذبح الاخلاص للجماعة. و يصبح الحب والتضحية بالنفس ثانو يا بالنسبة لارضاء النفس. ولكن الدين يعلمنا أن نضحي من أجل الآخرين وأن نتحكم في رغباتنا وعواطفنا. و يثير المجتمع احتياجات زائفة عن طريق الاعلانات ويحفز شهوة المستهلكين وفي النهاية يتحقق دفع المجتمع الى وفرة أكثر فأكثر، وعندئذ يضيع مفهوم الجهاد مع الرغبات والعواطف.

وماهو أكثر خطورة هو انشغال العلماء والخبراء الفنيين مسبقاً بالاهداف التكنولوجية. والاهداف هي: الحلول الفنية والكفاءة المتزايدة.وتختفي أو تتجاهل النتائج الاجتماعية للاختراعات والتجارب. وبما أن الفائدة المباشرة هي الهدف الوحيد فان الخبراء الفنيين قد فجروا المجتمع والطبيعة بأذاهم الشديد. فالغابات قطعت وحرقت والانهار لوثت

والتلال خربت وهكذا وجد عدم توازن في البيئة. وقد زود الاسلام الانسان بفكرة أنه ينتمي الى مجتمع كامل فيه علاقات بين الكائنات الحية والبيئة وأنه بالضرورة مشارك في عمليات الابداع في الكون. و يعطي العلم الحديث فكرة المواجهة بين الانسان والطبيعة بينما يصر الاسلام دائما على التوافق بين الانسان والطبيعة. وحديثا جداً بدأ العلماء في ادراك أنه يجب أن يوقف استغلال الطبيعة وان الحلول الفنية لمشاكل الكائنات الحية والبيئة يضخم المشاكل ويخلق اخطاراً وصعوبات جديدة ولكنهم لم ينجحوا حتى الان في التغلب على عاداتهم التكنولوجية.

ولا يعني هذا أنه ليس هناك أمل للمجتمع الحديث، كما لايعني أن الطريقة الوحيدة لانقاذ هذا المجتمع من تحطيم نفسه هو التخلي عن العلم والتكنولوجيا. فالمشكلة ليست مشكلة العلم والتكنولوجيا انما هي مشكلة الناس الذين سمحوا لانفسهم أن تتحكم فيها التكنولوجيا. لقد أصبح الانسان مكرسا للانجازات المادية، والنجاح العالمي، والكفاءة والراحة. انه الانسان الذي سمح بالتجديدات التكنولوجية التي لايتحكم فيها دون اشارة الى نتائجها الاجتماعية وعلاقة الكائنات الحية بالبيئة. ولهذا يجب انقاذ عقلية الانسان من أن تصبح تكنولوجية تماما ويجب أن يعرف الكبح وأن يتعلم كبح العلم والتكنولوجيا ويجب أن يعيد توجيه التكنولوجيا ويجعلها اداة للفائدة الاخلاقية. ان تعديل الثورة التكنولوجية لتلائم الطبيعة البشرية ممكن اذا قبل الانسان فقط مبدأ أنه يجب أن يعبد خالقه وليس نفسه، وأن عليه أن يعيش في انسجام مع الطبيعة والانسان، ولهذا يجب عليه ان يتعلم التحكم في عواطفه ولا ينغمس في صراع يسيطر عليه وتوجهه سياسات التعاظم النفسي وحب السلطة. ان القوة الهائلة التي اعطتها التكنولوجيا للانسان تجعل من الاكثر الزاما له أن يتحكم في نفسه. وهذا ما سيفعله فقط اذا أحب الله والنبي(ص) أكثر من نفسه وعائلته و بلده أو قبيلته أو أمته لأنه حينئذ سوف يسترشد بمبادىء تسمو على مبادىء الانانية التي يشجع المجتمع الحديث الانسان على أن يتبعها.

لقد ادرك خبراء التعليم في امريكا بعد الحرب العالمية الثانية ضخامة المشكلة واعدوا الصيغة التي يقوم عليها التعليم العام الذي يجب عليه ان يسعى الى تعليم الادراك بطريقة تجعل مواهب الاطفال العقلية والعاطفية والخيالية تنمو بطريقة متوازنة.

ولكن هذا التعليم العام الذي استوردته الاقطار الاسلامية دون تعديل فيه يعاني

اثنين من المساوىء الخطيرة واذا لم نزل هذه المساوىء فان التعليم العام بمفرده لن يستطيع اعادة توجيه التكنولوجيا. والعيب الاول هو الغياب الكامل للبعد الروحي. وكنتيجة لهذا الغياب فانه لا يوجد تسلسل هرمي للمعرفة كما لا توجد قوة مركزية مرشدة تدفع الانسان في طريق سعادة النفس. ان المبادىء البشرية عقلية جافة وليس من شأنها أن تخلق هذا الحب للمثل الاعلى الذي هو فوق الوجود المادي ومقصور على العقل. انه فوق الوجود المادى لأننا حينئذ لا نفكر في رغباتنا الانانية بل نضحي بأنفسنا للخير الاكبر من أجل حياة أعلى وعد الله بها، وانه مقصور على العقل لانه باتباع هذه المبادىء تتطور شخصياتنا ونصل الى مرحلة من الوعي تجعلنا نتمتع بقدرتنا على التحكم في انفسنا وهكذا نتحكم في القوى التي ندرك أنها تحاول أن تجردنا من آدميتنا وتقلل من شأننا. ونحن نعرف أننا نستطيع أن نكون ممثلين لله على الارض ونملك قوة أكثر من تلك التي تمنحنا اياها التكنولوجيا، لكنها قوة تجعلنا متواضعين وليس متعجرفين لاننا نعرف أنها قوة منحها الله لفائدة البشرية والطبيعة وأنه قادر على أن ينتزعها منا. انها قوة المحبة والاخضاع «المحبة تهزم كل شيء» انها تخلق فينا احساسا بعلاقة الكائنات الحية بالبيئة ونلاحظ انفسنا كجزء من كل أكبر، أكبر من الانسان وفي مثل حجم نظام الحياة.

والعيب الثاني لهذا النظام للتعليم العام هو النتيجة الطبيعية لكل ماسبق. فلم يبين خبراء التعليم في «تقرير هارفارد» ضرورة ايجاد بدائل للمفاهيم العلمية التي تخلق العقلية التكنولوجية التي تحلل «الحقيقة» كما يشير «براتراند راسل». فهى تدرب الاحساس بطريقة تعطي الاهمية ليس لوسائل معرفة العالم ولكن لوسائل معرفة كيفية تغيير العالم وتتحدث عن الحياد الاخلاقي وتجعل الاطفال يشعرون أن لايوجد تسلسل هرمي للقيم وليس هناك نقطة مطلقة يرجع اليها ومن ثم لاشيء دائم يستند عليه في لحظة أزمة وأن مايوجد فقط هو سلسلة من القيم المتغيرة و بسبب هذه المشكلة الخطيرة فهناك ضرورة للبشرية لايجاد بدائل عن الدين. وبما أن الاسلام لا يوازن الدين بالكنيسة أو مجموعة من الناس فان علماء المسلمين في كل انحاء الارض يستطيعون أن ينفذوا بحوثهم و يقدموا نتائجهم للعالم على نطاق واسع. وقد بدأ بعض المفكرين الدينيين في الغرب، في هذا الاتجاه ولكنهم لم ينجحوا في تكو ين طريقة عامة لان مجتمعهم ونظام القيم لديهم قد تحللت الى درجة انهم لايستطيعون تطبيق آرائهم بسهولة. ومازال المجتمع الاسلامي يحافظ على المفاهيم الاساسية بالرغم من انتهاكها. وعلى السلطات أن تقبل تفوق القرآن الكريم والسنة بالرغم

من انها قد لا تتبعها بحزم، وأن الناس مازالوا يحبون بعمق الله ونبيه و يقدسون بعمق جميع الانبياء ــ سلام الله عليهم ــ واذا استطاع العلماء المسلمون أن يجدوا البدائل و يتمكنون من تطبيق نظام جيد للتعليم يفتح عيون المجتمع الحديث في الغرب خاصة وان مجتمعنا والحمدلله لم يصبح حتى الآن عصريا بهذا المعنى.

ولهذا فمفاهيم الاسلام في التعليم كما فسرت في الجزء الاول من هذا البحث تحتاج الى أن تفسر وتستخدم في محيط الحياة الحديثة لكي نعيدتوجيه التكنولوجيا ونستخدمها لفائدة البشرية والحياة على نطاق واسع لكي ننقذ البشرية من التجرد من الصفات الانسانية، وما هو أكثر أن نعيد تقو ية الغرض والهدف من الحياة ونخلق في الانسان رغبات ملحة في أن ينمو كشخصية متوازنة وأن يتقدم باقتناع وثقة وسرور تجاه الوكالة التي وعده الله بها. دعنا نعيد تأكيد التسلسل الهرمي للقيم، دعنا نعيد تشكيل مفاهيم العلوم الطبيعية والاجتماعية والانسانية، دعنا نعيد تنظيم المنهج ونحصل على كتب دراسية مناسبة على أساس هذه المفاهيم وندرب مدرسينا حتى يكونوا قادرين على أن يغرسوا في الاطفال هذه القيم عن طريق شخصياتهم وطرق تدريسهم. حينئذ فقط سوف يصبح التعليم اسلاميا حقا ونستطيع أن نأمل في اصلاح وأمن وسلامة البشرية.